obeikandl.com

obeikandl.com

امانويل كانت

يعـــدُّ الفيلسوف الألمانى إمانويل كانت *Immanuel Kant* (١٧٢٤ — ١٨٠٤) ، إمام المذهب النقدى فى المعرفة ، وقد رأى أن كلاً من المذهب العقلى والمذهب التجريبى يجانب الصواب، الأول لأنه يتشبث بالأفكار الفطرية *idées innées* والآخر لأنه يبنى على التجربة الحسية دون غيرها . وكان على « كانت » أن يتولى الرد على هيوم، وهو يذكر أن نقد هيوم الفلسفى قد أيقظه من سباته القطعى . وهيوم ، كما رأينا ترك مسألة المعرفة موطن شك ، فبالرغم من كونه لم يسلم إلا بما هو تجريبى فقد جعل أصول المعرفة قائمة على الرجحان *Probability* دون اليقين *Certainty* . وقد توسط « كانت » بين شكية هيوم التجريبية من ناحية وبين الدجماطيقية أو القطعية العقلية من ناحية أخرى . ويقر « كانت » بأن فى كل من المذهب العقلى والمذهب التجريبى حقائق لا يمكن إغفالها .

ذهب « كانت » إلى أننا لا يمكن أن نصل إلى معرفة الأشياء فى ذاتها *les choses en soi* : (النومين) *Noumènes* ، وبالرغم من ذلك فعلمنا ممكن لأن لدينا معرفة بالظواهر *Phénomènes* التى تتألف منها التجربة . والعلم فى نظر « كانت » يتوخى الوصول إلى قوانين كلية ضرورية تسير بمقتضاها الظواهر . وهو يتفق مع هيوم وباركلى فى أن العالم الذى لدينا معرفة به هو عالم الظواهر فحسب . ولما كان هدف

العلم هو كشف قوانين الطبيعة فينبغى لنا إذن أن نوجه أبحاثنا فى المعرفة إلى طبيعة التجربة ذاتها إذا شئنا أن نعرف كيف يكون العلم ممكنا . وتلك هى المهمة التى ينهض « كانت » بأدائها .

ميز « كانت » بين جانبين لتجربتنا : ١ — الجانب الإدراكى *aspect concepetuel* ٢ — والجانب التصورى *aspect perceptuel* أو بعبارة أخرى بين الجانب التجريبى *aspect empirique* والجانب العقلى *aspect rationnel* . ووافق « كانت » على مايسلم به التجريبيون بأنه لايمكن أن تكون هنالك تجربة — ماعدا التجارب العقلية البحتة — دون إحساسات، وعلى ذلك لايمكن أن تكون هنالك معرفة بالموضوعات إلا وتنطوى على إحساسات .

ولكن الإحساسات الخالصة ليست معرفة وبالتالى فهى لا تكون وحدها أساساً للعلم ، ونحن ليس لدينا تجارب تتألف من إحساسات خالصة فحسب . إن تجاربنا لتنطوى على معان ، وعلاقات وافكار ، وتصورات، فنحن ليست لدينا إحساسات عارية وإنما ندرك موضوعات .

نحن لنا تجربة بشىء موجود فى مكان معين وزمان معين فالإحساسات الخالصة خلو من المعنى اللهم إلا إذا اعتبرناها مستمدة من الأشياء أو الموضوعات ومن ثم فالمعرفة تتطلب الإحساس والتصور معاً . فالتصور يكون خالياً دون إدراك حسى والإدراك الحسى دون تصور يغدو إدراكا أعمى .

وإذا كانت التصورات لا تمثل لأذهاننا من الإحساسات ، فهى إذن وليدة الذهن . لقد أبخس هيوم حق الذهن إذ جعل نشاطه نشاطاً سلبياً

فى تقبله للانطباعات الحسية ، وتحدث عن نشاطه فى استخلاص الأفكار من الانطباعات . بيد أن هيوم لم يعن العناية اللازمة بنشاط الذهن الفعال وأثر هذا النشاط ذاته فى التجربة . و « كانت » يرى أننا ينبغى أن نوجه انتباهنا إلى هذا النشاط إذ شئنا أن نقف على العوامل الجوهرية لتجاربنا فى عالم الظواهر .

ويرى « كانت » ـ وهو فى هذا على اتفاق مع هيوم ـ أننا لا نعرف طبيعة أذهاننا ولا طبيعة الأشياء فى ذاتها . ولكنه يرى أنه إذا كانت هنالك تصورات قائمة فى التجربة ، وإذا لم تكن هذه التصورات ناجمة عن إحساسات ، فلابد أنها آتية من مصدر آخر أعنى العقل أو الذهن الذى يشمل فى فلسفه « كانت » ملكات ثلاثاً : الحساسية *Sensibilité* ، والفهم *Entendement* والعقل *Raison* .

١ — الحساسية *Sensibilité* : طالما تهيأت لنا تجربة بأشياء فنحن ندركها فى مكان وزمان ؛ هذا مبدأ مطلق لا استثناء له . ولما كانت الإحساسات العارية لا تزودنا بالمكان والزمان ، فهما إذن صفتان نابعتان من العقل . هاتان الصورتان *formes* كما يقول « كانت » يولدهما الذهن . وهما قائمتان فى كل إدراك ، وهذا يعنى أن للذهن قدرة على تزويد كل تجربة إدراكية بهاتين الصورتين . وعلى ذلك ينبغى لنا أن نقر بملكة الحساسية *faculté de sensibilité* وهى تعنى تلك القدرة القائمة فى الذهن والتى تجعلنا ندرك الأشياء إدراكا زمانياً مكانياً .

وينبغى لنا أن نشير هنا إلى أن « كانت » يتفق مع « هيوم » فى أننا لا نحصل مباشرة على الزمان والمكان خارج التجربة ، وأننا إذا كنا نفسر

تجربتنا للأشياء تفسيراً مكانياً زمانياً فذلك التفسير مشتق من التجربة ويدور فى نطاقها . فليس لدينا إحساس ما بالمكان أو بالزمان كما هو الشأن فى إحساسنا باللون والصلابة ومع ذلك فكل إحساسات اللون والصلابة تتخذ صورة زمانيـــة مكانية . وعلى ذلك فهاتان الصورتان : — الزمان والمكان — آتيتان من الذهن . وحين نفحص الخصائص المكانية الزمانية للموضوعات كما يفعل الرياضى أو النجار فماذا نلاحظ ؟ نحن نفحص شيئاً أضافه الذهن إلى هذه الموضوعات الظاهرة لنا ، فدارس الهندسة يمكنه أن يبرهن بصدد الطبيعة الهندسية للمكان ، ثم يطبق النتائج التى يتوصل إليها على الموضوعات التى يجربها ، وتصدق نتائجه . لم ؟ لأن السِّمات المكانية للموضوعات هى سمات عقلية وليست تجريبية ، وهى ثمرة نشاط الذهن وليست تأتى عن طريق الحواس ، إن علم الرياضيات علم ممكن لا لأن هنالك عالماً واقعياً ، ولا لأن هنالك امتداداً يمكن قياسه كما ظن لوك ، بل لأنه يدرس خصائص الموضوعات وهذه الخصائص تأتى من الذهن لا من الأشياء وبذلك ينقذ « كانت » الرياضيات من موقف هيوم التجريبي الذى أدى بهذا الأخير إلى القول بأنه ليس هنالك يقين فى الرياضيات وذلك لأنه اعتقد بأنها تأتى كلية من التجربة الحسية . (١)

٢ — ويرى « كانت » أن ملكة الفهم *faculté d' entendment* تفسر الضرورة التى تلزم الذهن دائماً بالأخذ ببعض المعتقدات المتصلة

---

(١) ارجع الى الفصل الثاني من الباب الثاني من كتابنا «فلسفة» هيوم — القاهرة ١٩٥٦

بطبيعة الأشياء . فالذهن لا يمكن أن يفكر فى الأشياء التى يدركها إلا ويسلم حتما بأنها مسببة أى أنها معلولات لعلل ، فمبدأ العلية *Principe de Causalité* أعنى ألا شىء يحدث إلا وله علة ، مبدأ قائم فى الذهن ، وإذا كان « كانت » يجارى هيوم فى أن هذا المبدأ لا يمكن اشتقاقه من التجربة الحسية ، أعنى من الانطباعات الحسية ، فانه يرى أن تجريبية هيوم تعجز عن تزويده بهذا المبدأ ، وأنه لا بد من استكمال هذه التجريبية بالإقرار ببعض الخصائص العقلية التى لا بد منها لتحقيق التجربة . هنالك خصائص كلية ضرورية لازمة لكل تجربة يدعوها « كانت » بالمقولات *Catégories* منها الكيف ، والكم ، والعلاقة ، والجوهر ، والإمكان ، والعلية . فنحن لا نستطيع أن نفكر فى كرسى مثلا دون أن نرى أنه واحد ، وأن له كيفية ما ، وأن له علاقة أو ليس له علاقة بأشياء أخرى ، وأنه موجود وأنه ممكن .

ومبدأ العلية على غاية كبيرة من الأهمية . وهو فى نظر « كانت » مبدأ ضرورى ، وهو دعامة العلم . ومجال هذا المبدأ الظواهر فحسب أى نطاق التجربة ، فهو ضرورى لكل تجربة . والذهن هو الذى تقوم فيه مقولة العلية بين المقولات العقلية الأخرى . وهذه المقولة هى التى تجعل التجربة ممكنة .

٣ — أما ملكة العقل *Faculte de Raison* ، فهى ضرورية لتفسير أفكار ثلاثة فى العقل : فكرة النفس ، وفكرة العالم ، وفكرة الله .

إذا كانت الحواس تمثل التجربة عدداً من الاحساسات المختلفة ،

وإذا كان فهمنا يمثل التجربة على أنها عدد من التصورات ، فما الذى يجمع بينها ؟ كيف يحدث أن كل هذه الاجزاء المختلفة لتجربتنا تتوام على النحو الذى نلاحظه ؟ وإذا لم تكن تجتمع صدفةً واعتباطاً أليس لنا أن نرى أن ثمة مبدأ كهذا يجب أن يكون أعلى من جميع الإدراكات الخاصة وهو يوحّدها جميعاً ويؤلف بينها ؟ لابد أن يكون هنالك مبدأ موحد أعلى من كل تجربة ، هذا المبدأ هو الذهن أو النفس.

الذهن هو المبدأ الذاتى *principe subjectif* الموحّد للتجربة . ولكن التجربة تتطلب مبدأ موضوعياً *principe objectif* موحداً . هذه الوحدة الموضوعية *unité objective* هى العالم . وعالم الموضوعات أو الأشياء يختلف عن أنا ، الذات العارفة *sujet connaissant* فهذه الموضوعات تبدو قائمة جنباً إلى جنب وإن كنت أنا أبدو متحركا . هذه الموضوعات يبدو فيها انسجام واتساق ، فهنالك مبدأ يربط بينها و« كانت » لا يعرف طبيعة هذا المبدأ فهو يدعوه *noumène* أى الشىء فى ذاته ، وهو قائم خارج التجربة ، أما الشىء القائم فى التجربة فهو الظاهرة *phénomène*

وإذا كانت لدينا وحدتان ، وحدة ذاتية ووحدة موضوعية . فهل تظلان منفصلتين أم أن هناك ما يوحّد بينهما ؟ إن التجارب تجارب لأنها تجارب على موضوعات ، والموضوعات موضوعات لأنها جرت عليها تجارب ، فكلها مرتبطة ارتباطاً لا انفصام فيه . والمبدأ الموحّد هو الله .

وهنا يقف بحث « كانت » فهو لا يستطيع أن يعرف طبيعة الله

فهذه المعرفة خارجة عن نطاق المعرفة العلمية القاصرة على الظواهر .

إمكان العلم :

ماهو العلم ؟ وكيف يمكن أن يكون ممكناً ؟

إن العلم فى نظر «كانت» يتناول بالدراسة الظواهر فحسب ، فهو لا يصل إلى معرفة الأشياء بالذات ، النومين *Noumènes* ، والعلم ممكن فى هذه الدائرة ، دائرة الظواهر . ومقولتا المكان والزمان *espace et temps* القائمتان فى العقل هما اللتان تجعلان التجربة ممكنة . « فكانت » يرى أنه وإن كانت معرفتنا تبدأ من التجربة ، إلا أنه لا يترتب على ذلك أنها تنشأ منها . ذلك أن هنالك معرفة مستقلة عن التجربة ، وعن جميع انطباعات الحواس هذه المعرفة هى المعرفة الأولية *a priori* وهى لا بد منها لكى تتم المعرفة التجريبية أى البعدية *a posteriori* . والعقل هو الذى يضع قوانين الطبيعة فنحن من ثم نعرف الصورة الكلية للطبيعة معرفة أوَّلية .

فالعقل لا يمكن أن يفكر ويحكم إلا باستخدام المقولات الضرورية القائمة فيه والتى لا يتم بدونها تجربة . والمقولات ليست موضوعات ولكنها خصائص لا يمكن بدونها أن يتم إدراك الموضوعات فى التجربة . وليس فى وسع العقل أن يعرف إلا إذا حكم على الموضوعات الحسية فى إطار هذه المقولات .

ويميز « كانت » نوعين من الأحكام .

١ — أحكام تحليلية *jugements analytiques*

٢ — وأحكام تأليفية *jugements synthétique* . فالحكم التحليلي يعبر عن شيء موجود أصلا فى موضوع الحكم . فنحن نقول « إن السماء زرقاء » وفى هذا نفسر فحسب ماهو معروف أصلا من معنى السماء فهنا حكم تحليلى . أما الحكم التأليفى فلا يكون محموله متضمنا فى موضوعه فهو ينطوى من ثم على جديد . فقولى إن « قميصى ممزّق » هذا المحمول أمر جديد ، إذ ليس من طبيعة كل قميص أنه يكون ممزقاً ، يدل على حالة جديدة صار إليها القميص .

وإذا كنا فحسب نحلل ما نعرفه من قبل فلن نصل إلى معرفة جديدة وإذا كنا نؤلف أحكاماً مما يصل إلينا من انطباعاتنا الحسية فسنصل إلى جديد . والحكم التأليفى البعدى *a postreriori* يزودنا بمعرفة كلية مطلقة أعنى المعرفة التى يتطلبها العلم . إن العلم معناه معرفة القوانين العامة الكلية التى لا استثناء فيها . فالعلم يقتضى المعرفة الضرورية الكلية بالعالم لا بعمليات الذهن . والعلم يسعى إلى معرفة كل جديد . وما دامت الخصائص الكلية الضرورية للظواهر تصدر عن الذهن ، فإن اليقين الذى يسعى إليه العلم قائم فحسب فى الأحكام التأليفية الأولية :

Jugements synthétiques a priori

والنتيجة التى ينتهى إليها « كانت » هى أن اليقين ممكن فى العلم ،

ولكنا لا نصل إلى اليقين من الأحكام التأليفية البعدية *Jugements synthétiques a posteriori* بل من الأحكام التأليفية الأولية . إن العلم يدرس عالم الظواهر الطبيعية ، ويمكن ان يصل إلى نتائج يقينية بصددها لأن العقل يزودنا بالعناصر الأولية اللازمة لتحقق الظواهر فى التجربة .

---

obeikandl.com